فيلسوفٌ وفلاسفةٌ(١)

أتأمَّل الآن هذا القلم في يدي ـ وأنا أفكِّر فيما سأكتبه للزَّهراء ـ فأرى نصاب القلم أضلاعاً حُمراً في لون المرجان ، تنسرحُ قليلاً ، ثمَّ تستدير ، ثمَّ تستدقُّ ، ثمَّ تخرج منها دمةٌ سوداء كأنَّها قُصَّةُ ريشةٍ من جناحٍ ، وقد خُيِّل إليَّ : أنَّ هذا اللَّون الأحمر المزهُوَّ يقول للأسود : إنَّما أنت غلطةُ الَّذي صنعني ، فكيف ألهم في هذا الإلهام ، فوسمني بهذا الميسم من حُسنٍ ، ولونٍ ، وتركيبٍ ، ثمَّ اعترضتْه الغفلة فيك فأخطأ ، وأدركه العجز فلم يميِّز ، ودخل على رأيه الوهَنُ ؛ فإذا هو يصلك بي كالسَّيِّئة بعد الحسنة ، وينزلك منِّي منزلة القبح من الجمال ، فأين كانت صحَّة رأيه الَّتي بلغ بها في أحسن ما وفِّق إليه حين بلغ فيك أسوأ ما يمكن أن يصنع ؟ فيقول الأسود : إنَّما فيك أنت غلطة الصَّانع ، وبك أخطأ جهة الفنِّ ، فلم يزن منك ما كان وزن منِّي ، ولا قدَّر لك مثل ما قدَّر لي ، وجئت غليظاً غير مقدودٍ ، وكنت إلى العرض ، ولم تكن إلى الطُّول ، وكنت أحمر ، ولم تكن أسود ، وما أراك إلا فاسد الحسِّ ، متغيِّر الذَّوق ، وما أراك صنعك هذا الرَّجل إلا في ساعة همٍّ قاربت بين نفسه ، ورأيه ، فمازجت بين رأيه ، وعمله ، فجمعت بين عمله ، وغلطه .

ذلك منطق اللَّونين فيما أدركتُ منهما ، وكلاهما مخطئ في جهة ما هو مستدلٌّ به ، أو متنظِّرٌ فيه ، والحقيقة من ورائهما ؛ إذ الحكمة ليست في أحدهما لحمرةٍ ، أو سوادٍ ، بل في اثنيهما جميعاً لائتلافهما جميعاً ، فلا تنقسم عليهما قسمةٌ ما ؛ لأنَّها آتيةٌ منهما بالمقابلة بين اثنيهما ، وما لا يخرج أبداً إلا من اثنين ؛ فهو أبداً واحدٌ لا نصف له ؛ كالطِّفل من أبويه : لن تعرف شطره من أمِّه ؛ لأنَّك لن تعرف شطره من أبيه .

أفي الأرض كلِّها من يستطيع أن يقسم طفلاً واحداً ، فيجعله طفلين ، تعتدل بهما الحياة ، وتمدُّهما بروحين من روحٍ واحدةٍ ؟ ! إنَّك لن تجد هذا الخالق الأرضيَّ إلا في طائفتين : الأولى قومٌ من ذاهبي العقول ، يخلقون كلَّ شيءٍ ؛ لأنَّهم

(١) مجلة الزهراء سنة (١٩٢٥) . (س) .

لا يخلقون شيئاً ، والثَّانية قومٌ من جبابرة العقول . . . عندنا ، تعرف لهم من الخلط ، وسخف ما يريدون أن يعلوا به على النَّاس ؛ إذ كان النَّاس لا يجاوزون الحقائق ، فظنَّ هؤلاء : أنَّهم إن جاوزوها ، وعَدوْا عليها ، خرجوا إلى طبقةٍ فوق العقل الإنسانيِّ . وللجنون طرفان ؛ أحدهما : ألا يعقل المجنون عن النَّاس ، والآخر : ألا يعقل النَّاس عن العاقل ، فلذلك ذلك ، ولهذا هذا ، وكأنَّ في رأس كلٍّ منهما مُضْمَرَةً من قوَّة الخلق ، تنطوي على محجوبةٍ إلـهيَّةٍ ، فكلٌّ منهما يزيد في الخلق ما يشاء ، وكلٌّ منهما فوق الطَّبيعة ؛ لأنَّه من ذوي الأسرار المجهولة ؛ التي لا تستبين عندنا من خفائها ، ثمَّ لا تخفى عندهم من استبانتها .

يضحكني من جبابرة العقول هؤلاء : أنَّهم يرون الدِّين مرَّةً عادةً ، وتارةً اختراعاً ، وحيناً خرافةً ، وطوراً استعباداً ، وكلُّ ذلك لهم رأيٌ ، وكلُّ ذلك كانوا يعتقدونه بالحجَّة ، ويشدُّونه بالدَّليل ، فلمَّا جاء « تاغور » الشَّاعر الهنديُّ المتصوِّف إلى مصر ، وجلسوا إليه ، وسمعوه ؛ خرجوا يتكلَّمون كأنَّما كانوا في معبدٍ ، وكأنَّما تنزَّلت عليهم حقيقته الإلـهيَّة ، وكأنَّما اتَّضعت هذه الدُّنيا عن المكان الَّذي جلس فيه الرَّجل ، فلا يعرفونه من الأرض ، ولا من هذا العالم ، بل كانوا في غشيةٍ قد فرُّوا لها ، وسكنوا إليها ، وما أراهم صُرفوا عن عقولهم ، ولا صُرفت عقولهم عنهم ، ولكنَّ « تاغور » شاعرٌ فيلسوفٌ ، وهم يعرفون أنفسهم من لصوص كتُبه ، وآرائه ، ويقعون منه موقع السَّفسطة[1] الفارغة من البرهان القائم ، وإذا قيسوا إليه ؛ كانوا كالذُّباب تزعم أنفسَها نسورَ المزابل ، ولكنَّها لا تكابر في أنَّ من الهُزُؤِ بها قياسها بنسور الجوِّ .

لقد ضربهم « تاغور » لا بأنَّه لمسهم ، بل بأنَّهم لمسوه . . . وفضحهم فضيحة اللُّؤلوة للزُّجاج المدَّعي : أنَّه لؤلؤٌ ، وأظهر لنا تجمُّلهم العقليَّ كهذه الأصباغ في وجه الشَّوهاء : تذهب تتصنَّع ، ولا تدري : أنَّه إن كان في أدهانها وأصباغها روحُ النَّقاش ؛ ففي وجهها هي معنى الحائط .

لقد قرأت كلَّ ما كتبوا عن « تاغور » ألتمس فيه هذه الحقيقة ؛ لأرى كيف يكون جبابرة العقول حين تنكشف عنهم المعاذير ، وتنزاح العلل ، وتنهتك

---

(١) « السفسطة » : كلمةٌ مُعرَّبة ، ومعناها : القياس الباطل الذي يُقصد به تمويه الحقائق ، وإسكات الخصم .

الأستار ؛ فإذا هم في كلِّ ما كتبوه لا يحسُّون إلا هذه الحقيقة ، ولا يصفون إلا هذا الحسَّ ، فلم يُخزهم عندنا إلا هذا الوصف ، لا جرم فكلُّ ما أثنوا به على الشَّاعر الفيلسوف قرأناه ذمّاً لهم ، وعرفناه قدْحاً فيهم ، وأخذناه تهمةً عليهم ، وكلُّ ما أعظموا من أمر صغَّر من أمرهم ، ولقد جعلوه إنساناً كأنَّما تنتهي قمَّة هذه الدُّنيا عند قدمه ، وتبدأ قدمه من قمَّة الدُّنيا ، فما عرفنا من ذلك قياساً لسموِّ « تاغور » وارتفاع نفسه ، بل قياساً لانحطاط أنفسهم ، وهَوان أمرهم ، وقلَّة خطرهم ، فإنَّ الرَّجل المقلِّد المخدوع لا يزال يطول في تقليده ، ولا يزال يتوغَّر في الرَّأي يراه ، ويعتسف[1] طرق العلم اعتسافاً ، حتَّى يرميه الله بأصلٍ من هذه الأصول الإنسانيَّة التي يقلِّدها ، فإذا هو مفحَمٌ ، يتقاصر من طولٍ ، ويتسهَّل من وعرٍ ، ويهتدي من تعسُّفٍ ، وينحطُّ إلى الوَهْدة[2] بعد أن كان على الجبل ، ويسلِّم في نفسه ، ويذعن برأيه ، وينقاد من حيث يأبى ، ومن حيث لا يأبى ، ويصبح وقد غمرته تلك النَّفس أشبهَ بالظِّلِّ ممَّا يرميه ، ويفيء به ، فهو مسخٌ في تمثيله الصُّورة ، وهو كذبٌ عليها بما يطول ، ويقصر ، وهو على كلِّ أحواله إبهامٌ سخيفٌ مظلمٌ لحقيقةٍ شريفةٍ نيِّرةٍ .

وأنت أفلا ترى هذا من جبابرة العقول كتلك الشِّيمة في أخلاق العامَّة ؛ إذ لا يصلحون أبداً إلا أن يكونوا تبعاً ، ولا علم لهم إلا ما يُربط في صدورهم من فلانٍ ، وفلانٍ ، ثمَّ يعلمون بلا تحقيقٍ ، ويحملون بلا تمييزٍ ، ثمَّ لا تكون نَهْمَةَ[3] أنفسهم مع الرَّجل ـ إذا اجتمعوا به ـ إلا في التَّسليم له ، واتِّقاء حقائقه ، والنُّزول عن آرائهم إلى رأيه ، والخروج من أنفسهم إلى نفسه !

لقد قلنا من قبل : إنَّ جبابرة العقول هؤلاء الَّذين يأبون إلا أن يكونوا علماءنا ، وسادتنا ، ليصرِّفوا عقولنا ، ويغيِّروا عقائدنا ، ويصلحوا آدابنا ، ويدخلونا في مساخط الله ، ويهجموا بنا على مَحارمه ، ويركبونا معاصيه ؛ إن هم في أنفسهم إلا عامَّةٌ ، وجهلةٌ ، وحمقى إذا وُزنوا بعلماء الأمم ، وقيسوا إلى حكماء الدُّنيا ، وما يكتبون للأمَّة في نصيحتها ، وتعليمها إلا ما يتحوَّل من كلماتٍ ، وجملٍ في الصُّحف ، والكتب إلى أن يصيروا في الواقع فسَّاقاً ، وفجرةً ، وملحدين ،

---

(١) « يعتسف » : اعتسف الطريق : سار فيه على غير هُدى .

(٢) « الوهدة » : الأرض المنخفضة كأنَّها حفرة . والهوَّة تكون في الأرض .

(٣) « نهمة » : النَّهمة : الشهوة في الشيء ، والحاجة .

وساخرين ، ومفسدين ؛ فالمصيبة فيهم من ناحيةِ العلم النَّاقص في وزن المصيبة بهم من ناحية الخُلُق الفاسد ، وهاتان معاً في وزن المصيبة الكبرى الَّتي يجنون بها على الأمَّة لتهديمها فيما يعملون ، وتجديدها فيما يزعمون .

لم أنخدع قطُّ في هؤلاء من فلاسفةٍ ، أو دكاترةٍ ، أو جبابرةٍ ، ولست أضع أمرهم إلا على حقِّه ، فإنِّي لأعرف : أنَّ الهرَّ من قبيلة الأسد ، ولكنَّ أسديَّته على الفأريَّة وحدها . . ولعلَّ ما عاقبته الجهل خيرٌ للأمَّة من عواقب علمهم ، وتخبُّطهم ، وحماقاتهم ؛ فإنَّهم قومٌ مقلِّدون ، ولهم طباعٌ معتلَّةٌ زائغةٌ ، وعقولٌ لا مِساك لها من دينٍ ، أو ضميرٍ ؛ فما يحتجُون إلا إلى بدعةٍ سيِّئةٍ ، أو آفةٍ محذورةٍ ، أو فكرةٍ متَّهمةٍ ، ولا يعملون إلا ما يشبه الظَّنَّ بهم ، والرَّأي فيهم ؛ من تمدين الأخلاق السَّافلة ، وإلحاقها بالعلم ، أو الفلسفة مع بقاء العقل ناضجاً صحيحاً ، يحكم على هذا الخبيث؛ كما كان يحكم على ذلك الطَّيِّب ، وليس من سبيلٍ إلى هذا إلا من جهة تحويل الأخلاق ، فإنْ هي استمسكتْ ، ولم تتحوَّل ؛ فها هنا موضع النِّزاع ، وحمل الخلاف . ولا بدَّ من حربٍ منَّا كحرب الاستقلال ، ثمَّ حربٍ منهم كحرب الاستعمار .

فالَّذي بيننا وبينهم ليس القديم والجديد ، ولا التَّأخُر والتَّقدُّم ، ولا الجمود والتَّحوُّل ؛ ولكن أخلاقنا وتجرُّدهم منها ، ودِيننا وإلحادهم فيه ، وكمالُنا ونقصُهم ، وتوثُّقنا وانحلالُهم ، واعتصامنا بما يمكننا وتراخيهم تراخي الحبل لا يجدُ ما يشدُّه .

والآن أنظرُ إلى قلمي ، فأرى شطره الأسود ما جُعل كذلك إلا ليزيد في جمال حُمْرته ، وبريقها ، ويكسبها لمعةً لا تأتيها إلا من السَّواد خاصَّةً ؛ والشَّرُّ خيرٌ إذا بقي محصوراً في موضعه ، ولم يتجاوزه ؛ فإذا تنبَّهت الأمَّة لجبابرة العقول هؤلاء ؛ قلنا : لا بأس بالسَّواد المظلم ؛ إذا كانت حكمتُه حمراء .

* * *